وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قومًا»[1]. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله: «أوَفعلته»؟ قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريبًا مني لقتلته»[2]. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»[3]. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة فحالفوا عليه قريشًا عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبًا غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذاك. فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم. فدربّوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة»[5].

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾.

اللام في ﴿لأوّل﴾ الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾[6] وقولك جئته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى ﴿أوّل الحشر﴾: أن هذا أوّل حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأنّ المحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أنّ المحشر ههنا يعني: الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم؛ لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ لشدّة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدّتهم وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فأتاهم﴾ أمر الله ﴿من حيث لم يحتسبوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب والهمم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسبانهم ومنه أتاهم الهلاك.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قولك وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ **قُلْتُ:** في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسمًا لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك:

وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم

وقرئ: ﴿فأتاهم الله﴾ أي: فأتاهم الهلاك. و﴿الرعب﴾

---

(1) رواه ابن مردويه في تفسيره وفي مسند الفردوس. والزيلعي 3/ 432.

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 3/ 433.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 3/ 433.

(4) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 3/ 434.

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند 3/ 438.

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا.

الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه. وقذفه إثباته وركزه. ومنه قالوا في صفة الأسد مقذف كأنما قذف باللحم قذفًا لاكتنازه وتداخل أجزائه. وقرئ: يخرّبون ويخربون مثقلاً ومخففًا والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم، والخربة الفساد. كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواه الأزقة، وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج المليح، وأما المؤمنون فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم وأن يتسع لهم مجال الحرب.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ **قُلْتُ**: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه. **﴿فاعتبروا﴾** بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل: وعد رسول الله ﷺ المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال فكان كما قال يعني: أنّ الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم.

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾.

فلولا أنه كتب **﴿عليهم الجلاء﴾** واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت **﴿لعذبهم في الدنيا﴾** بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة **﴿ولهم﴾** سواء أجلوا أو قتلوا **﴿عذاب النار﴾** يعني: إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾.

﴿من لينة﴾ بيان لما قطعتم ومحل ما نصب بقطعتم كأنه قال: أي شيء قطعتم وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله: **﴿أو تركتموها﴾** لأنه في معنى اللينة، واللينة النخلة من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية وهما أجود النخيل[1]. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة وقيل: اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين. قال ذو الرمّة:

كأنّ قتودي فوقها عش طائر ... على لينة سوقاء تهفو جنوبها

وجمعها لين. وقرئ: قوّمًا وعلى أصلها وفيه وجهان: أنه جمع أصل كرهن ورهن، أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو وقرئ: قائمًا على أصوله ذهابًا إلى لفظ ما **﴿فبإذن الله﴾** فقطعها بإذن الله وأمره **﴿وليخزي الفاسقين﴾** وليذل اليهود ويغيظهم إذن في قطعها، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا: يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها، فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء[2] فنزلت. يعني: أنّ الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم غيظًا ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا، ويتصرفون فيها ما شاؤوا. واتفق العلماء أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة، وعن ابن مسعود: قطعوا منها ما كان موضعًا للقتال.

فإن **قُلْتَ**: لم خصت اللينة بالقطع؟ **قُلْتُ**: إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق. وروي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله ﷺ فقال: هذا تركتها لرسول الله. وقال: هذا قطعتها غيظًا للكفار[3]. وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضرة الرسول ﷺ؛ لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك. واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب.

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾.

﴿أفاء الله على رسوله﴾ جعله له فيأ خاصة. والإيجاف من الوجيف، وهو: السير السريع، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات: «ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل على هينتكم»[4]. ومعنى **﴿فما أوجفتم عليه﴾** فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلاً ولا ركابًا ولا تعبتم في القتال عليه وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. والمعنى: أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم. فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء

(1) قال أحمد: والظاهر أنّ الإذن عام في القطع والترك؛ لأنه جواب الشرط المضمر لهما جميعاً، ويكون التعليل بإجزاء الفاسقين لهما جميعاً، وأنّ القطع يحسرهم على ذهابها، والترك يحسرهم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها، فهم في حسرتين من الأمرين جميعاً.

(2) أخرجه أبو داود في المراسيل باب: في قطع الشجر (الحديث رقم: 3-6).

(3) قال الزيلعي غريب، وساق حديث نحوه عند البيهقي في دلائل النبوة وآخر عند الواحدي في المغازي 3/439.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: أمر النبي ﷺ عند الافاضة (الحديث رقم: 1671) وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: الدفعة من عرفة (الحديث رقم: 1920).

يعني أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرًا، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت. لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها.

مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾.

بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسومًا على الأقسام الخمسة. والدولة والدولة بالفتح والضم وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان أي: يدور من الجد يقال: دالت له الدولة، وأديل لفلان. ومعنى قوله تعالى: ﴿**كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدًا بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة؛ لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة وكانوا يقولون: من عزيز. والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة واثرة جاهلية، ومنه قول الحسن: اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل: الدولة ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف يعني: كيلا يكون الفيء شيئًا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء. والدولة بالفتح بمعنى التداول أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولاً بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء. وقرئ دولة بالرفع على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة يعني: كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء. ﴿**وما اتاكم الرسول**﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿**فخذوه وما نهاكم**﴾ عن أخذن منها ﴿**فانتهوا**﴾ عنه ولا تتبعه أنفسكم ﴿**واتقوا الله**﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿**إن الله شديد العقاب**﴾ لمن خالف رسوله والأجود أن يكون عامًا في كل ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه

وأمر للفيء داخل في عمومه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لقى رجلاً محرمًا وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: اقرأ عليّ في هذا آية من كتاب الله. قال: نعم فقرأها عليه.

﴿**للفقراء**﴾ بدل من قوله: ﴿**لذي القربى**﴾ والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من الله والرسول[1] والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ أنّ الله عزّ وجل

---

(1) قال أحمد: مذهب أبي حنيفة: أن استحقاق ذوي القربى لسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم، وقد أغلظ الشافعي رضي الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الردّ على هذا المذهب، بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة، ولم يشترط الحاجة، وعدم اعتبار القرابة مضادة محادّة، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة، بأن الصدقات لما حرّمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة، أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم اتبع هذا العذر بأن قال: لا ينبغي أن يعبر به، فإن صيغة الآية ناصة على الاستحقاق لهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على عظم أقسارهم، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم، فقد عطل فحوى الآية، ثم استعظم الإمام وقع ذلك عليهم؛ لأنهم يذهبون إلى اشتراط الإيمان في رقبة الظهار زيادة على النص، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس؛ لأنه يستنتج وليس من شأنه الثبوت بالقياس، قال: فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما نكروه بغرض القرب، فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالعجمة، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه، انتهى كلام الإمام، وإنما أوردته ليعلم إن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة عن الآية، فلذلك لزمه أن تكون زيادة على النص، فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البدل المذكور في الآية، فإنما يسلك معه في واد غير هذا، فيقول: هو بدل من المساكين لا غير، وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم، ويحمل الأغنياء على إيثارهم،= = وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا، فلما قصد ذلك، وقد فصل بين نكرهم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم، بقوله: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ إلى قوله: ﴿شديد العقاب﴾ طري نكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبدلة منها، وهي: الفقر لتشهد النظرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر، ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك، وهي: إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين، وابتغاؤهم الفضل والرضوان من الله، ونصرهم الله ورسوله، وصدقهم في نياتهم إلى آخر ذلك، فهذا هو الذي يرشد إليه السياق مؤيداً بالأصل، فإن ذوي القربى ذكروا بصفة الإطلاق، فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد، وما نكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفي في إقامة وزن الكلام، فيبقى ذوو القربى على أصل الإطلاق، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل، يخلص بالجملة الأخيرة؛ لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقي ما تقدمهن على الأصل، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل، وكل ما سوى هذا مع أنه لو جعل بدلاً من ذوي القربى مع ما بعده، لم يكن إبداله من ذوي القربى إلا بدل بعض من كل، فإنّ ذوي القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء، ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلاً للشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، فيلزم أن يكون هذا البدل محسوساً بالنوعين المذكورين في حالة واحدة، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين وكل منهما يتقاضى ما يأباه الآخر، فهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى، وعليه أعرب الزجاج الآية، فجعله بدلاً من المساكين خاصة، والله تعالى الموفق للصواب.

أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأنّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزّ وجل. ﴿أولئك هم الصادقون﴾ في إيمانهم وجهادهم.

﴿والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴿٩﴾﴾

﴿والذين تبوّؤا﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار.

فإن قُلْتَ: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال تبوّؤا الإيمان؟ قُلْتُ: معناه تبوّؤا الدار، واخلصوا الإيمان كقوله: علفتها تبنًا وماءً باردًا، أو وجعلوا الإيمان مستقرًا ومتوطنًا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه، أو سمى المدينة؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان. ﴿من قبلهم﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوؤ دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿ولا يجدون﴾ ولا يعلمون في أنفسهم ﴿حاجة مما أوتوا﴾ أي: طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة. يقال: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: خلة وأصلها خصاص البيت وهي فروجه. والجملة في موضع الحال أي: مفروضة خصاصتهم. وكان رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبا دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة. وقال لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة. فقالت الأنصار: بل تقسم لهم من أموالنا ودیارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت. الشح بالضم والكسر وقد قرئ بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع كما قال:

يمارس نفسًا بين جنبيه كزة ... إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل: فهو المنع نفسه ومنه قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾(1) ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بما أرادوا، وقرئ ومن يوق.

﴿والذين جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴿١٠﴾﴾

﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ عطف أيضًا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد وقيل: التابعون بإحسان ﴿غلا﴾ وقرئ غمرًا وهما الحقد ﴿لإخوانهم﴾ للذين بينهم وبينهم اخوة الكفر ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر.

۞ ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿١١﴾﴾

﴿ولا نطيع فيكم﴾ في قتالكم أحدًا من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿لكاذبون﴾ أي: في مواعيدهم لليهود وفيه دليل على صحة النبوّة لأنه إخبار بالغيوب.

﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴿١٢﴾ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴿١٣﴾﴾

فإن قُلْتَ: كيف؟ قيل: ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قُلْتُ: معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾(2) وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي: يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿رهبة﴾ مصدر رهب المبني للمفعول كأنه قيل: أشد مرهوبية. وقوله:

﴿في صدورهم﴾ دلالة على نفاقهم يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله.

فإن قُلْتَ: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد! قُلْتُ: معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله. ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قومًا أولى بأس ونجدة فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم. ﴿لا يفقهون﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه وحق خشيته.

﴿لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والامارة والفن، باب: في خبر النضير (الحديث رقم: 3004).

(2) سورة الزمر، الآية: 65.

بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿لا يقاتلونكم﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جميعًا﴾ مجتمعين متساندين يعني: اليهود والمنافقين ﴿إلا﴾ كائنين ﴿في قرى محصنة﴾ بالخنادق والدروب ﴿أو من وراء جدر﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله الرعب في قلوبهم، وأن تأييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر بالتخفيف، وجدار وجدر وجدروهما الجدار ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم تلك البأس والشدّة؛ لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله ﴿تحسبهم جميعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ متفرقة لا ألفة بينها يعني: أنّ بينهم إحنًا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿قريبًا﴾؟ قُلْتُ: بمثل على كوجود مثل أهل بدر قريبًا ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ من قولهم: كلأ وبيل وخيم سيء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ثم متاركتهم لهم وإخلاقهم.

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿كمثل الشيطان﴾ إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشًا يوم بدر وقوله لهم: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ إلى قوله: ﴿إني بريء منكم﴾ وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها على أنه خبر إنّ و﴿في النار﴾ لغو وعلى القراءة المشهورة الظرف مستقر و﴿خالدين فيها﴾ حال. وقرئ: أنا بريء وعاقبتهما بالرفع.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

كرّر الأمر بالتقوى تأكيدًا و﴿اتقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل، واتقوا الله في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد. والغد يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له[1]. وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: كأن لم تغن بالأمس. يريد: تقريب الزمان الماضي وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد.

فإن قُلْتَ: ما معنى تنكير النفس والغد؟ قُلْتُ: أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة. كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا.

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿نسوا الله﴾ نسوا حقه فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان[2] حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾. هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة. فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينهوا عليه كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنهه بذلك على حق الأبوّة الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية. على أن المسلم لا يقتل بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾.

---

(1) قال أحمد: وقد قيل في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ حتى قيل: إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه، كقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ فمعنى رب ههنا: هو معنى كم وأبلغ منه قول القائل:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

إلا أنّ الزمخشري فرّ من هذا المعنى؛ لأنّ الواقع قلة النفوس الناظرة في أمر المعاد، فنزله على معنى يطابق الواقع، ويمكن أن = يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التكثير للنفوس المأمورات بالنظر في المعاد، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر، وهو نظر حسن، فإن الفعل المسند إلى النفس ههنا ليس وقوع النظر حتى يستقل، وإنما هو طلب النظر، وهو عام التعلق بكل نفس، والإنصاف أن ما ذكره الزمخشري أمكن وأحسن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: بل خلق فيهم النسيان.

هذا تمثيل وتخييل كما مرّ في قوله تعالى[1]: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ وقد دل عليه قوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾. والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره. وقرئ: مصدّعًا على الإدغام ﴿وتلك الأمثال﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾.

﴿الغيب﴾ المعدوم ﴿والشهادة﴾ الموجود المدرك كانه يشاهده. وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل: السر والعلانية، وقيل: الدنيا والآخرة.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾.

﴿القدوس﴾ بالضم والفتح، وقد قرئ بهما البليغ في النزاهة عما يستقبح ونظيره السبوح. وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح. و﴿السلام﴾ بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في وصف كونه سليمًا من النقائص، أو في إعطائه السلام. ﴿والمؤمن﴾ واهب الأمن. وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به، على حذف الجار كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[2] المختارون بلفظ صفة السبعين. و﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء الحافظ له. مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاءً. و ﴿الجبار﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد اي: أجبره. و﴿المتكبر﴾ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده. و﴿الخالق﴾ المقدّر لما يوجده. ﴿البارئ﴾ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة. و﴿المصوّر﴾ الممثل وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ: البارئ المصوّر بفتح الواو ونصب الراء أي: الذي يبرأ المصوّر أي: يميز ما يصوّره بتفاوت الهيآت. وقرأ ابن مسعود: وما في الأرض عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته»[3] فاعدت عليه، فأعاد عليّ. فاعدت عليه فأعاد عليّ. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الممتحنة مدنية

روي أنّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها: سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت»؟ قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت»؟ قالت: لا. قال: «فما جاء بك»؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي. تعني: قتلوا يوم بدر، فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزوّدوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردًا واستحملها كتابًا إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، اعلموا أنّ رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ عليًا وعمارًا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانًا وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فادركوها، فجحدت وحلفت، فهمّوا بالرجوع. فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك. فأخرجته من عقاص شعرها[5]. وروي أنّ رسول الله ﷺ آمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم[6]. فاستحضر رسول الله حاطبًا وقال: «ما حملك عليه»؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقًا في قريش، وروي: عزيزًا فيهم أي: غريبًا. ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فأردت أن اتخذ عندهم يدًا، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم باسه وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئًا. فصدقه وقبل عذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ

---

(1) قال أحمد: وهذا مما تقدّم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدّب بأدب الآية، حيث سمى الله هذا مثلاً، ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 155.

(3) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما والزيلعي 3/442.

(4) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/443.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الممتحنة باب: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ (الحديث رقم: 4890)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (الحديث رقم: 161 ـ 2494).

(6) رواه الدارقطني في السنن في كتاب: الحج، باب: المواقيت (الحديث رقم: 292).